

مناظر من موقعة صفين

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

على حتى جاء معه لمحاربة معاوية في صفين . ولكنه كان ممن ينظر اليهم بعين الريب في جيش علي . ولا يمكن أن يكون الأمر على غير ذلك لأن جيش علي كان لا يثق بأحد ممن كان يعمل لعثمان ، على أن الاشعث كان يطمع في الصدارة والرياسة ، وهاهي فرصة تهيأت له فتقدم اليها مسارعاً ، فطلب الى علي أن يخرج له لقتال القوم على الماء فاذن له علي في ذلك . واشتدت الحرب وتوالت الامداد من الجانبين وانتصر جيش علي وأصبحت الشريعة في يده ، وارتدت جنود معاوية الى مكان بعيد عن النهر ، وتقدمت جنود علي فنزلت في ناحية من السهل الفسيح الذي كانت جيوش معاوية تحل فيه وتملك الانتقال خلاله .

كثير تحدث الجنود والقواد بعد ذلك فيما يظنونه من صنع علي عقب انتصاره ، فمن قائل إنه يقابل الاساءة بمثلها ، ومن قائل إنه يتفضل على عادته في النبل ، وقال عمرو بن العاص : « ما اظنه يمنعنا الماء كما منعناه من قبل . لانه قد جاء لغير ذلك » وكان عمرو أصدق المتوقعين ، فان علياً أبي ان يمنع أحدا ورود الماء . وقد يسائل احداً نفسه : « ما ذا كان يجب عليه أن يفعل ؟ » وقد يجيب بحسب ما يظنه الأمثل والاصلح ، ولكن لا يشك أحد في وصف ما أتاه علي بأنه نبل .

نزلت جنود علي في سهل صفين في أواخر ذي الحجة ، فلما دخل المحرم اتفق الجيشان على المودعة مدة الشهر الحرام ، وكان علي يرجو أن يستطيع في اثنيائه حسم الشر والوصول الى توحيد كلمة المسلمين بغير حرب ، غير أنه كان يعلم أن معاوية لا يقصد غير الملك ، وما كانت الحجج لتستطيع أن تحوله عن مثل ذلك القصد . غير أنه كان يطمع في أن يستميل بالحجة أهل الرأي ممن مع معاوية ، فكانت رسله تختلف الى معاوية تحمل من الحجج ما هو أشبه بالدعاية السياسية منه بالمراسلة المعتادة بين رئيسي حزين متعادين ، وكان ينتهز فرصة وفود رسل معاوية لكي يحاول أن يستميلهم بالحجة ، وكان اذا وجد من هؤلاء الرسل انصرافاً عن حجته وتمسكاً بمعاوية أظهر أشد الاسف حتى ليقول مثلاً : « انك لاتسمع الموقى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادي العمى عن صلاتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » فلما رأى المحرم قد مضى وأيقن أن تلك المحاولات لم تفده شيئاً ، أمر أحد قواده أن يعلن استئناف القتال ، ولم يرض أن يهاجم أعداءه حتى يعلن اليهم عزمه . فلما غربت شمس آخر يوم من المحرم نادى مناديه باعلان الحرب معتذراً بأنهم أبوا الاذعان للحجة ولم يلبوا الدعوة الى الاسلام . وابتدأت المصادمة على شكل مواقع جزئية ، وذلك بأن ترسل كتيبة من جيش علي

اجتمع في سهل صفين جمعان من العرب لم يشهد تاريخ ذلك الشعب اجتماع مثلهما في موقعة منذ الزمن القديم المعروف في التاريخ ، فقد كانت المواقع القديمة لا تزيد على أن تكون معارك بين بضعة مئات ، فلما كان الاسلام سمعنا عن موقعة حنين وقد اعجبت المسلمين كثرتهم اذ كانوا عشرة آلاف . فلما خرج العرب الى حروب الروم والفرس زاد عدد الجنود فصار الى عشرات الآلاف ، فكان عدد العرب مثلاً في اليرموك ستة واربعين الفا ، وكان عددهم في القادسية ثلاثين الفا ، وفي نهاوند كذلك ثلاثين الفا . واما في صفين فلم يكن جيش علي بأقل من سبعين الفا . ولم يكن جيش معاوية بأقل من تسعين الفا .

وكان معاوية السابق الى النزول في سهل صفين ، فاختر لجيشه سهلاً فسيحاً متصلاً بنهر الفرات في مكان يسهل الاستقاء منه . ولم يكن في ذلك الجزء من نهر الفرات الأعلى مكان غيره يمكن الشرب منه ، إذ ان النهر يجري هناك في اقليم الجبال فيغلب على مجراه ان يكون عميقاً قائم الجوانب سريع التيار

ولعل معاوية كان يريد السبق الى اختيار ذلك المكان ليكسب الموقعة قبل أن يلتحم الجيشان . فلما اقبل علي في جيشه رأى عدوه نازلاً في خير المنازل وقابضاً على ناصية الشريعة ، وقد وقفت كتيبة من جيشه لتدافع عن مورد الماء إذا حاول عدوه أن يصل اليه .

كانت خطة علي في حروبه أن يأمر جنده بالكف عن القتال حتى يحاول حل الخلاف بالحجة والمسالمة . حقاً لم تفده هذه الخطة في كثير من المواطن ، ولكنه لم يخرج عنها مرة واحدة في حرب من حروبه . وقد كان في هذه الموقعة جاريماً على عادته هذه ، فانه أمر أصحابه ألا يتعرضوا لأحد من جيش معاوية حتى يرأسه فيما جاء له . ولكن العطش ألح على أصحابه ، فالتمسوا مكاناً على النهر يستطيعون أن يشربوا منه فلم يستطيعوا ، فأرسل علي الى معاوية يطلب اليه أباحة الماء لأصحابه فأبى . فلم يكن بد من القتال على الماء قبل محاولة المفاوضة فيما جاء له الجيشان .

وكان بطل القتال في ذلك اليوم الأول رجلاً اسمه الاشعث ابن قيس ، كثر تردد اسمه فيما بعد في آخر الموقعة . وقد كان من قبل خلافة علي عاملاً لعثمان على أذربيجان ، فلما قتل عثمان دخل في طاعة

فلقاهما كتيبة من جيش معاوية فتجاولان مدة نهار حتى يحجز بينهما الليل، وكانت القتلى في مثل هذه المجاولات قليلة العدد. وكان الناس اذا قبل الليل يضمنون السلاح ويدخل بعضهم الى مخيم بعض فيتحدثون ويتسامرون ويسمع بعضهم قول بعض في غير قتال حتى تستأنف المعركة سيرها في اليوم التالي. وقد استمر الحال على ذلك مدة الأسبوع الاول من المعركة، ثم عزم على المقاتلة بكل جيشه في يوم الاربعاء الثاني من شهر صفر سنة سبع وثلاثين للهجرة.

وكان الجيشان مرتين حسب النظام المتبع حين ذلك. وهو أن يجعل لكل منهما قلب وجناحان، وكان الهجوم يحدث من الجناحين أو من أحدهما ويكون القائد في القلب ومعه أو ثقل جنوده يهجم بهم وقت الضرورة، أو يمد بهم من يحتاج الى المدد من الجناحين. وقد بدأ على الهجوم بجناحه الأيمن وجل جنوده من أهل اليمن، فهبطوا على جناح معاوية الأيسر، وكان قائد ميمنة على أحد شجعان العرب وقرائهم وهو عبدالله بن بديل، فكانت الحملة الأولى تياراً قوياً ترعزعت له ميسرة معاوية حتى اضطر الى امدادها بالشجعان الذين معه في القلب وهم الذين يبعوه على الموت، وعند ذلك قويت ميسرة معاوية وكرت على ميمنة على حتى ردتها، ولم يبق ثابتي الا القائد مع مائتين أو يزيدون استماتوا في القتال امام الجروع المتزايدة الجرارة التي تدفقت عليهم، فلما رأى على أن ميمنته ارتدت هذا الارتداد السريع الذي لم يكن متوقفاً عقب الانتصار الأول حاول أن يقابل الهجوم بمن معه في القلب وكانوا من مضر. فلم يستطع أن يرد بهم ذلك التيار واضطر الى أن ينحاز الى ميسرته وكان جل جنودها من ربيعة. فلما رأته الميسرة ما حاق بالميمنة والقلب وانحياز الخليفة اليها ثارت فيها الحمية وثبت ثباتاً عظيماً ووقف على معهم يحارب بنفسه.

رأى احد قواد على وهو الاشتر النخعي ما حاق بالميمنة من الهزيمة وكان يئima. فثارت روحه القوية وجاشت نفسه بالاسلة فأسرع نحو المنهزمين وتمسك بقوة نفسه وشجاعة قلبه وفصاحة لسانه من أن يرجع كثيراً منهم ويذمرهم ويثير فيهم الحماسة حتى التف حوله عدد عظيم ممن كان انهزم من الميمنة. فعطف بهم الى القتال فأدرك عبدالله بن بديل وهو بأخر رمق من الجهد يقاقل مع اصحابه القلائل المستميتين. فأعاد الكفة الى الرجحان وما زال يقاقل حتى صار القتال متكافئاً بين الفريقين، ولما رأى على ذلك عاد الى الميمنة وجعل يشجعهم ويذمرهم.

وأقبل الليل والكفتان متراجحتان بعد، ولم يشأ أحد من الفريقين أن يقف القتال أثناء الليل إذ كان كل منهما يعرض على النواجز من أجل النصر.

وأصبح الصباح فاذا بجنود على في الميمنة لا يزالون منتصرين مع الاشتر النخعي حتى صرعوا صفوف المعقلين الذين التفوا حول معاوية وقد بايعوه على الموت وعقلوا أنفسهم بالعمائم حتى لا يستطيعوا الانصراف من حوله، وكانت الميسرة كذلك منتصرة قد أوشكت أن تبلغ الى قلب جيش معاوية وجعلته يفكر في الفرار، وفيما كان الأمر على ذلك أرتفعت صيحة من ميمنة جيش معاوية وما زالت تزايد حتى بلغت ميسرة جيش على، فاذا الصيحة ترتفع فيها حتى تبلغ عالياً وبأخذ قواده في المجادلة في بينهم، ثم تنتقل المجادلة حتى تصبح بينهم وبين الخليفة. وتلك هي صيحة تحكيم القرآن إذ رفع جند الشام المصاحف على الرماح وقالوا: «قفوا تلك الحرب الطاحنة، الى متى يتطاحن المسلمون؛ لقد قرب المسلمون من التفاني. ومن يكون لحرب الفرس ومن يكون لحرب الروم اذا نحن تفانينا وقتل بعضنا بعضاً؟»

تردد على في وقف الحرب وعلم أن تلك خدعة لجأ اليها عدوه عند مارأى كفة النصر تنصرف عنه. ولكن بعض قواده هدده بالثورة عليه. وكان أشدهم في ذلك الأشعث بن قيس صاحب الانتصار العظيم يوم الشريعة. فاضطر على أن يبعث الى ميمنته المنتصرة لوقف الحرب. وتردد الاشتر في ترك الحرب وقد أوشك أن ينتصر. فأعاد الامام أمره الى الاشتر بوقف الحرب وأفضى اليه بنياً ثورة قواد ميسرته، فاضطر الى أن يرفع يده وعاد الى على مخفياً تائراً ساخطاً على افلات النصر من يده وكان قد ظنه قريباً.

ولم يمض بعد ذلك زمن طويل حتى كتبت صحيفة التحكيم وانصرف الجيشان أولهما الى الشام وهم فرحون إذ أفلتوا من هزيمة محققة، وثانيهما الى العراق وهم بتلاومون ويتجادلون ويختلفون وفي قلوبهم أشد الاسى على ما أصابهم من الخذلان بعد وشك الانتصار.

ولما نسائل النفس عن علة هذا الفشل العجيب ولا نستطيع أن نقنع النفس بأن الحوادث الظاهرة كانت كافية لأحداثه. فان أمر هذه الهزيمة كان شبيهاً بعود من الثقب أشعلته فرأيت من إشعاله انفجاراً مدمراً لم يكن ليخطر لأحد ببال. فاذا عزى الانفجار الى عود الثقب كان ذلك إهمالاً لذلك الغاز الملهب الذي كان خفياً عن الأعين فأحدث الانفجار المروع عند ما اشتعل فيه ذلك العود الضئيل. إن الحرب هي الجهد الأعظم الذي ينتهي اليه الخصام بين حزين. وفيه يبذل كل جانب أقصى ما عنده من الهمة ليفوز. وقد لا يتورع المحارب عن الكيد بالكذب والدس والتجسس، وقد يباح للناس أمثال هذه الدنيا في الحروب مع تحريمهم لإياها في المعاملة المعتادة. (تمة المقال في العدد المقبل)